المحاضرة الثالثة : السير الشعبية:

1\_ مفهوم السير:

أ‌- لغة:

للسيرة الشعبية دلالات عديدة على المستوى اللغوي، ولكنها تقترب من بعضها سواء في المعنى أو التفسير، وفي ذلك يقول ابن منظور« السّيرة: السّنة، وقد سارت وسرْتُها. يقال: سار بهم سيرة حسنة. والسيرة: الهيئة. وفي التنزيل العزيز: سنعيدها سيرتها الأولى. وسيَّر سيرة: حدّث أحاديث الأوائل. وسار الكلام والمثل في الناس: شاع. ويقال: هذا مثل سائر وقد سير فلان أمثالا سائرة في الناس. وسائر الناس جميعهم» ، من تعريف ابن منظور نجد السيرة تتلخص في معاني السّنة والهيئة والشيوع، وهو ما نجده كذلك في القاموس المحيط« فالسيرة بالكسر: السنة والطريقة والهيئة والميزة» ، وكذلك في المعجم الوسيط« السيرة: السنة والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، والسيرة النبوية وكتب السير مأخوذة من السيرة، بمعنى الطريقة» ، إلا أن السيرة على المستوى الدلالي وفي نشأتها الأولى، قد ارتبطت بتاريخ الرسول( صلى الله عليه وسلم) وغزواته ضد المشركين، بغية نشر الدعوة الإسلامية، ومن ثمة« فإن هذه الكلمة في دلالتها المبكرة، اقترنت بالمغازي التي تحيل على غزوات الرسول(ص)» ، والملاحظ هو أن السيرة بهذا التحديد المعجمي الدلالي، لا تفيد في إعطاء مفاهيم للسيرة الشعبية والسيرة الذاتية .

ب- اصطلاحا:

يشير الباحث محمد حافظ ذياب وهو المهتم بدراسة السير الشعبية في مؤلفات عديدة له إلا أن ضبط تعريف لها، يجعلنا نواجه مشكلات عديدة، وهذه المشكلات« تتصل بخلفيتها التاريخية، وعلاقة الشفاهي والمدون في تراثها، وموقعها بين أشكال التعبير الأخرى» فالسيرة بوصفها مادة تاريخية متصلة بمواقفها وأحداثها وشخصياتها، ونموها شفاهة عبر روايتها وتناقلها واستنادها إلى مفردات الذاكرة الشعبية، إلى حين تدوينها في وقت متأخر، ثم تداخلها مع أشكال تعبير أخرى عسّر من تعريفها، وهنا نستعين بتعريف الباحث لطفي الخوري الذي يقر أن الأصل في السيرة هي حفظ الحوادث التاريخية وأنساب العائلات في ذاكرة الإنسان« وقد اتبعت هذه الطريقة في المجتمعات القديمة، التي تفتقر إلى الكتابة والقراءة لغرض تسجيل حوادثها التاريخية وتشغل سيّر الأنساب في الفولكلور، ما تشغله تراجم الأشخاص في التاريخ الأدبي، وكما تتحول الترجمة التاريخية للأشخاص إلى قصة أدبية طويلة تدور حول حياة شخص، كذلك تتحول سيّر العائلات على مر الزمان سّيرا رومانسية أو ملاحما بطولية تفتقر إلى الأساس التاريخي الواقعي، وتغدو إدام يستخدمها الخيال الشعبي، وينسج خيوطها، فنجد أن هذه السير التي تحولت إلى ملاحم، قد اشتملت على خرافات وحكايات العفاريت والكثير من المبالغات، والبطولات الخارقة والحوادث المتعددة، التي تقع ضمن فترات تاريخية متباينة ومتباعدة قد تستغرق قرونا عدة» ، فالسيرة الشعبية حسب الباحث حوادث واقعية، تحولت مع مرور الزمن بإضفاء الخبال الشعبي عليها إلى مادة أدبية.

ويعرفها الدكتور محمد رجب النجار بأنها« ضرب من القص الشعبي أو السرد الشفاهي Oral Narrative الذي يرتبط بالقطاع البطولي في الوجدان الجمعي العربي، مماثل لما يعرف في الآداب العالمية بالإبداع الملحمي، الذي يمتزج فيه التاريخ بالتاريخ المتصور والواقع بالمتخيل، والحقيقي بالأسطوري، والممكن بالمستحيل، والطبيعي بالخارق، والمتعين بالغيبي، ومن ثم فهو نص سرد عربي منفتح بطبيعته على سائر النصوص الأدبية والمعرفية والثقافية، شأنه في ذلك شأن سائر الملاحم العالمية، والسيرة بهذا المعنى لم تعد ضربا من الخطاب التاريخي البحت، وإنما هي في جوهرها ضرب من الخطاب الأدبي السردي أو الملحمي الشفاهي» ، و فيما يخص الفضاء التعبيري، فالباحث نفسه يؤكد أن« معظم السير العربية كالملاحم العالمية، قد تروى شعرا أو نثرا، وإن كانت معظم السير العربية يغلب عليها القالب النثري، الذي يمتزج بالشعر» .